المتنبي والبهاء زهير (١)

ادبيان مشهوران قد حكمت لهما قصائدهما الغراء ان يكرّما بشرف الانتساب الى الشعر وخليقان ان يجعلا اعلامهُ ويتصدّرا في مجالسهِ . غير ان الاول وهو من اهل القرن الرابع للهجرة يشبه كريماً يجود بعقود الجمان وقلائد المرجان ولكن بوجه مقطب عبوس . فكانما اشتمد ان لا ينعم بجواهر انكاره الاّ على من يحتمل تعبّس عبارتهِ اي على من يفهم لسانهُ ويزيح بحوف الغموض عن تلك الوجوه الحسان . ولذلك اقبل العلماء على شرحهِ ليكشفوا للناس ما فيهِ من كنوز المعاني وكفى بهِ برهاناً على ان في شعرهِ غموضاً ولا سيما على من هم من اطفال الادب او احداثهِ . فلا اكشف اني كنت واياهُ اول ما أُخذت اقرأُه كالمختلفين لغةً على ان كلاً منهما تعلم من لغة الآخر فكنت كمن يجالس رجلاً ليستفيد منهُ ولكن الرجل قلّ ما يقبل عليهِ بوجههِ ولا يكلمهُ غالباً الاّ موجزاً فضقت صدراً حتى اضطررت ان استخدم ترجماناً بيني وبينهُ لكي افهم المقصود من كثير من ابياتهِ وذلك الترجمان هو شرح الواحدي فصاحب هذا الشرح كان بارعاً في معرفة الغريب وخبيراً بمذاهب الشعراء . ولعلك تقول ما الذي دعا ابا الطيب الى جعل شعرهِ عالياً على ضعفاء الادباء والمتأدبين وما الذي حملهُ على الاغراب فاقول ان المتنبي اظن لكثرة ما حفظ من الفاظ اللغة وخزن في ذاكرتهِ من القصائد التي هي منازل لغريب اللغة لم يعد يشعر انها غريبة على الناس او انهُ كان لا يلتفت الى حال من يقرأُ ويسمع ولا يراعي اختلاف الطبقات في الفهم . وربما كانت نفسهُ تميل الى استعمال الغريب والعويص وتعدهُ من مفاخر الشعر ولكن رجلاً لهُ مثل هذه المعاني يجُل عن الانحطاط الى حالة من كل رأس مالهِ استعمال كلمات تدر دورانها على الالسنة وقلّ تداولها بين الكتاب ولم يبقَ لعين القارىء ولا لاذن السامع انس بها وهي كما لا يخفى على احد لا تكلف من يستخدمها الاّ ان يفتح كتاباً من كتب اللغة فيخرجها من مجثمها ودونَ امرٍ سهل على كل من ارادهُ

هذا ولنا ان نعلل ذلك بان كثيراً مما هو غريب على ضعفاء الادباء من اهل زماننا كان متداولاً بين ادباء زمانهِ . ولا شك ان لاختلاف الزمان تأثيراً في الكتابة لفظاً ومعنى

(١) المكاتبة الادبية المرحومة انيسه كريمة الاستاذ الفاضل سعيد الخوري الشرتوني وقرينة الشاب المهذب الخواجه مخائيل الشرتوني المتوفاة في بيروت في ١ آب سنة ١٩٠٦ عن ٢٣ عاماً

كما ان لاختلاف الطباع والمقاصد ضرباً من التأثير في الكتابة فكثيرون من تقدموا المتنبي تجد في كلامهم اغراباً اكثر مما تجد في شعر المتنبي ما خلا عشرة ومن نحا نحوه

والمتنبي يظهر بهاء شعره لاهل الأدب وارباب القريض فعيونهم هي التي ترى بدائعهُ واطائفهُ . واما طبقة الضعفاء فانما يرون بعضهُ بعيون ضعيفة النظر . ولكن بعد ان يفسر الترجمان اي الشارح ما لم يفهم القارئ من الفاظهِ او كناياتهِ يكون (القارئ) مثل صغير وعدهُ ابوهُ شيئاً نفيساً وشرط عليهِ شرطاً فلما قام بالشرط جاءهُ ابوهُ بالموعود فابتهج فتاهُ واما انا ففراراً من عناء التأمل والتفتيش وتخلصاً من جميل الترجمان اقتصرت من قصائدهِ على ما هو واضح اللفظ والمعنى من نحو قولهِ

اني لأعلم والليب خبيرُ ان الحياة وان حرصت غرورُ

ومن نحو الحزن يقلق والتجمل يردعُ والدمع بينهما عصيٌّ طيعُ

على ان هذا الشاعر العظيم متى اراد ان يكلم الناس بلا ترجمان رأيت في كلامهِ من الحلاوة واللطف ما يستعذب على اطيب شراب وذلك كقولهِ في العتاب

أأنطق فيك هجراً بعد علمي بأنك خير من تحت السماء

واكرهُ من ذباب السيف ظلماً وامضي في الامور من القضاء

وما اربتُ على العشرين سني فكيف ملتُ من طول البقاء

وهبني قلت هذا الصبحُ ليلٌ أيعمى العالمون عن الضياء

وقد لاحظت انهُ متى همَّ ان يفصح عما في نفسهِ وحرص على ان يفهم معناهُ ويقبل احتجاجهُ ويرتخ برهانهُ عدل عن الاغراب وسلك اقرب طرق الافهام كما رأيت في الابيات المذكورة وكما ترى في قولهِ

كم قد قُتلتُ وكم قد متُّ عندكمُ ثم انتفضت فزال القبرُ والكفنُ

وفي قولهِ ان كان يجمعنا حبٌّ لدولتهِ فليت اننا بقدر الحبِّ نقتسمُ

واما الثاني وهو البهاء زهير الذي وُلد في اواخر القرن السادس للهجرة ومات بعد منتصف القرن السابع بثماني سنين فديوانهُ الروضة الناضرة الزاهرة او الوجوه الجميلة الضاحكة فقصائدهُ كتفاح دمشق او عنب داريا فكأنما يلقاك بشباب فاخرة نظيفة وهيئة مشرقة غريبة تكاد تأكلهُ بضميرك وتشربهُ

ثم ان شعر المتنبي مثل رجل عميق الغور لا يشرح لك ما في صدرهِ ولا يطاولك بما في طويتهِ الا بعد ان يشق بودك

واما البهاء زهير فيكشف لك دخيلة امره وسريرة نفسه لا وَّل مقابلة ولا يخشى اعراضاً ولا زهداً ولا يخاف زوال كرامة

وقصارى القول ان الذوق يطلب ان الكلام يصل معناهُ الى العقول على اثر وصوله الى الآذان وان من يأتي بما لا يدرك مقصدهُ منهُ لأَّ من باب حسن اللغز كان كالزُّور الذي يشيح بوجههِ عن زائريهِ فينفرون منهُ ولا يحبون ان يطأوا لهُ عتبةً بعدها

واعلم اني كتبت هذا الفصل بمنزلة عرض حال ارفعهُ الى جماعة المدققين لابين بهِ حالة من هو مثلي عند قراءة ما فيهِ تعقيد او اغراب حتى تدركهم الرأفة بضعفة الادباء وجماعة العوام. افلا ترى ان اهل العلم الواسع لا يشعرون بما تشعر بهِ ضعيفة في العلم من نظائري عند مطالعة ما وضع تحت استار من الاستعارات الغريبة والكنايات البعيدة او ما جاء كالمتكرر يزيّ غير مألوف وهو ما وقع اضطراب سبب في تركيب العبارة عندهُ او أُورد بكلم لم يستعملهُ الأَّ مثل الحريريّ في مقاماتهِ

واذا اعتبرت ما ذكرتهُ كما املاهُ عليَّ شعوري فاحبَّ ان اذكر لك من شعر البهاء زهير ما تعلق بهِ الروح ويلتذُّ بهِ السمع وكلهُ من نمط ما يأتي حلاوةً وطلاوةً ووضوحاً قال

من مثل قلبيَ او من مثل ساكنهِ ... الله يحفظ قلبي والذي فيهِ
يا احسنَ الناس يا من لا ابوح بهِ ... يا من تجنَّى وما احلى تجنّيهِ
فداتنفس الله عيناً صرتَ توحشها ... واسعد الله قلباً صرتَ تأويهِ
فمن اذاعَ حديثاً كنت اكتمهُ ... حتى وجدتُ نسيم الروض يرويهِ
اذا سألت فسل من فيهِ مكرمة ... لا تطلب الماء الأَّ من مجاريهِ

وقال رقَّ في الجوّ النسيمُ ... فتفضَّل يا نديمُ
ما ترى كيف انحت ... من حلة الليل رقومُ
وكأَّن الفجر نهرٌ ... غرقت فيهِ النجومُ

وقال تقدَّم ذكر الجود قبلك في الورى ... واصبح من ذكراك مسكاً ختامهُ
انتَ بلغياك الزمانَ وصرفهُ ... فقيريَ من يخشى عليهِ احتضامهُ

وقال في مدح صلاح الدين الايوبي

عرف الحبيبُ مقامهُ فتدلَّلا ... وقنعتُ منهُ بموعدٍ فتعلَّلا

الى ان قال

اهوى التذلل في الغرام وانما ... يأبى صلاح الدين ان اتذلَّلا

مهّدتُ بالغزل الرقيق لمدحهِ واردت قبل الفرض ان اتنفّلا
ملك شمخت على الملوك بقربهِ ولبست ثوبَ العزّ فيهِ مسبلا

الى ان قال

قهر الزمانَ وقد عراكِ صروفهُ حتى مشى في خدمتي متوسلا
ثم التفتُّ وجدت حولي انماً ما كان اسرعها اليَّ واعجلا

فيا ليت شعري هل يدخل على قلب القارىء من الانس والابتهاج عند قراءة قول المتنبي

وفارٌ كما كالربع اخجاءُ طاعمهُ بأن تعدا والدمع اشفاهُ ساجمهُ

مثل ما يدخل عليهِ منهما عند قراءة ما رويت من شعر البهاء فلا ريب انك تقول كلاً فهو كالبواب الذي يتلقاك بوجه عابس وكلام يابس

والخلاصة ان من صرف همتهُ الى استعمال المأنوس وتعمد ان يختار الاساليب المتنطفة كما فعل البهاء زهير كان كالمورد العذب تتقبل على شعرهِ الخاصة والعامة . ومن استطاع ان يجتذب اليهِ الناس فخليق بهِ ان لا يبعدهم عنهُ ومن اراد ان يبث افكارهُ وينشر مقاصدهُ فلا يناسبهُ الاَّ الكلام السهل لانهُ جامع بين الصحة والسهولة فهو مفهوم عند العوام ومقبول عند الخواص وان عدل الى التعقيد صرف الناس عنهُ فأين من قول المتنبي

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

قولهُ هو نفسهُ

أُحاد ام سداس في أُحاد لويلمها الخوطة يالتنادي

فالاول واضح كالصبح والثاني مغلق كأنهُ الليل البهيم فقد تكلف الشارح ان يكتب عدة سطور ليرفع الستار عن هذا المعنى ولو كان كلامهُ في لغة اعجميَّة لكانت ترجمتهُ ايسر من شرح كلام وصل من التعقيد الى ان اعتاص ادراك معناهُ على العلماء

واين من قول المتنبي وضوحاً وطلاوةً

اذا اعتاد الفتى خوض المنايا فاسهل ما يمرُّ بهِ الوحولُ

قولهُ هو نفسهُ

فتىً الفضُ جزء رأيهُ في زمانهِ اقلُّ جزيء بعضهُ الرأي اجمعُ

ولكن سبحان من لا يشاء في اعماله لو او لولا فان الفرزدق على علو طبقتهِ صار قولهُ

وما مثلهُ في الناس الاَّ مملكاً ابو أُمهِ حيٌّ أبوهُ يقاربه

مثلاً في مخالفة الفصاحة بما فيهِ من التعقيد